

أول معركة بحرية في التاريخ الإسلامي

«ذات الصواري» .. تاريخ وأحداث



معركة ذات الصواري معركة بحرية حدثت في العام 35 هـ 655م بين المسلمين والإمبراطورية البيزنطية وانتهت بنصر المسلمين. ومنعت هذه المعركة نهاية سيطرة الدولة البيزنطية على البحر الأبيض المتوسط كما أنها أول معركة بحرية يخوضها المسلمون.

بعد أن أمكن للأسطول الإسلامي السيطرة على سواحل البحر المتوسط، بدءاً من جزيرة رودس حتى برقة في شمال أفريقيا، جمع قسطنطين بن هرقل أسطولاً كان الروم قد بنوه من قبل بهدف الفتح من خسارتهم أمام المسلمين في البر، وخرج الأسطول الرومي يقطع حربية تعدادها يوازي الألف.

ووصلت أخبار هذا الحشد البحري إلى الخليفة عثمان بن عفان، الذي لم ير بدأً من إعطاء الإذن لصد العدوان. وهكذا، أرسل معاوية، الذي كان أميراً لبلاد الشام آنذاك، مراكب بقيادة بسر بن أرطاة، واجتمع مع عبد الله بن سعد بن أبي السرح في مراكب مصر، وكانت تحت إمرته، ومجموعها مائتا سفينة فقط، وسار هذا الجيش الإسلامي الذي ضمّ أشجع المجاهدين المسلمين الذين انتصروا من قبل على الروم في معارك عديدة، أما أسباب هذه المعركة فعديدة، منها: الضربات القوية التي وجهها المسلمون إلى الروم في أفريقيا.

وإصابة الروم في سواحلهم الشرقية والجنوبية، بعد أن سيطر المسلمون بأسطولهم عليها، وخشية الروم من أن يفوق أسطول المسلمين فيفكروا في غزو القسطنطينية. وإرادة قسطنطين بن هرقل استرداد هيبته ملكة بعد الخسائر المتتالية برأ على شواطئه في بلاد الشام وساحل برقة. ورغبة الروم في خوض معركة ظنوا أنها مضمونة النتائج كي تبقى لهم السيطرة في المتوسط، فجافظوا على جزره وينطلقوا منها للإغارة على شواطئ بلاد العرب، ومحاولة استرجاع القسطنطينية

الله لهم النصر بما صبروا، واندرج ما تبقى من الأسطول الرومي. وكاد الأمير قسطنطين يقع أسيراً في أيدي المسلمين، كما ذكر ابن عبد الحكيم، لكنه لجأ إلى الفرار لما رأى قواه تنهار، وجنّ جنده تطفو على سطح الماء وتلقي بها الأمواج إلى الساحل، وقطع أسطوله تغرق جزيرة صقلية، فسأله أهلها عن أمره لم نجد من يردهم، فقتلوه وخلّوا من كان معه في المراكب.

المؤرخ البيزنطي «ثيوفانس» هذه المعركة بانها كانت يرموك ثانياً على الروم، ووصفها الطبري بقوله: «إن الدم كان غالباً على الماء في هذه المعركة».

حاول الروم أن يغرقوا سفينة القائد عبد الله بن أبي السرح ليلقي جنود المسلمين دون قائد، فتقدمت من سفينته أخرى رومية والقت إليها السلاسل لتسحبها وتغرق بها، لكن «عقمة بن يزيد الخطيفي» انقذها فخرهم، فقالوا: لو دخل المسلمون لم نجد من يردهم، فقتلوه وخلّوا من كان معه في المراكب.

في رايهم قد ضمنوا النصر عندما قالوا «بل الماء الماء»، وانقضوا على سفن المسلمين بدافع الأمل بالنصر، مستهدفين توجيه ضربة أولى حاسمة يحطمون بها شوكة الأسطول الإسلامي.

انقض الروم على صفوف المسلمين المحاذية لسفنتهم، وصار القتال كيفما اتفق، وكان قاسياً على الطرفين، وسالت الدماء غزيرة، وسقطت الجثث في الماء، وضربت الأمواج السفن حتى أجهتها إلى الساحل، وقتل من المسلمين الكثير، كما قتل من الروم ما لا يحصى، حتى وصف

أن جعلوا المعركة برية على الرغم من أنهم في عرض البحر، فكيف تم للمسلمين ذلك؟ أمر عبد الله جندته أن يقاتلوا من سفن أعدائهم، فاقتربوا حتى لامست سفنهم سفن العدو، فنزل الغدائيون إلى الماء وربطوا السفن الإسلامية بسفن الروم بحبال متينة، فصارت ألف ومائتا سفينة كقطعة أرض ستجري المعركة عليها. جال عبد الله بن سعد على جنوده يعظهم ويامرهم بتلاوة القرآن الكريم، خصوصاً سورة الأنفال، لما فيها من معاني الوحدة والفتيات والصبر. وبدأ الروم القتال، فهم

حرجاً، فقال القائد المسلم لصاحبه: أشيروا علي، فقالوا: انتظر الليلة بنا لترتب أمرنا ونختبر عدونا، فبات المسلمون يصلون ويدعون الله ويذكرونه، ويتهددون، فكان لهم دوي كنوي النحل على نغمات تلاطم الأمواج بالمراكب.

أما الروم، فباتوا يضربون النواقيس في سفنهم، وأراد قسطنطين أن يسرع في القتال، ولكن لما فرغ عبد الله بن سعد بن أبي السرح من صلواته إماماً للمسلمين في الصبح، استشار رجال الرأي والمشورة عنده، فاتفق معهم على

الأسطول الإسلامي



لم يكن للمسلمين عهد بركوب البحر أو الحرب في أساطيله، لكنهم وجدوا من خلال فتوح بلاد الشام أن الأسطول البيزنطي مصدر تهديد خطير ومباشر لآمنهم وأمن المناطق المفتوحة واستقرار الإسلام فيها، فادركوا أن بناء أسطول إسلامي ضرورة استراتيجية حيوية، وأول من اقترح بناء أسطول بحري إسلامي كان معاوية بن أبي سفيان والي بلاد الشام على الخليفة عمر بن الخطاب ولكن لم يتم بناء أسطول عسكري إسلامي إلا في عهد الخليفة عثمان بن عفان فكانت نواة هذا الأسطول السفن التي وجدوها في موانئ الشام ومصر، ثم انطلقوا إلى صناعة السفن في دور الصناعة، وهكذا دخل السلاح البحري في الاستراتيجية العسكرية الإسلامية لأول مرة في تاريخ المسلمين، وبدأ هذا السلاح الناشئ بسرعة مذهلة في ممارسة العمليات البحرية.

وكان من الطبيعي ألا تقف بين خطة مكتوفة الأيدي أمام تلك القوة البحرية التي قامت في البحر الأبيض المتوسط، وأصبح تحت يدها أغلى ما كانت تملك من دور للصناعة وقواعد بحرية في عكا والإسكندرية، مما يشكل تهديداً خطيراً لسيادتها التي امتدت زمنياً بلا مناهس. واتخذت العمليات البحرية للأسطول الإسلامي شكلين: عمليات تستهدف غزو جزر البحر الأبيض ذات الأهمية الاستراتيجية في تأمين الشام ومصر. عمليات القتال البحري ضد أسطول بيزنطة مثل معركة ذات الصواري موضوع هذا البحث.



اللازمة لصناعة السفن، وهذا السبب ذكره أن شيبالد لويس كسبب محتمل لمعركة ذات الصواري، حيث قال: «ومما لفت النظر أن المكان الذي دارت فيه المعركة، وهو ساحل الأناضول، يزدهج بغابات السرو الكثيفة، وهو الشجر المستخدم في صواري السفن، ولعل بين الخشب اللازم لصناعة السفن هناك، وبين قوعه في قبضة العرب، وإذا صح هذا الزعم فإنه يقوم دليلاً على أهمية الخشب في الصراع البحري بين العرب وبيزنطة».

المحجوزين جميعاً، ثم هاجموا رئيس المدينة وقتلوه ورجاله كلهم وهربوا إلى تخوم الروم، غير أن معاوية لم يغير رأيه في حصار القسطنطينية، بل جاء بجيشه - يقصد أسطولي الشام ومصر - إلى قيصرية وكيادوكيا، وعين أبو لباروس Abula Barus - يقصد عبد الله بن سعد بن أبي سرح - قائداً للأسطول، فقدم هذا فينيقياً إلى مكان في ليكيا [Lycia] حيث كان الإمبراطور قنسطانز مقيماً بمعسكره وأسطوله ودخل معه في معركة بحرية. حرمان المسلمين من الحصول على الأخشاب

أسباب المعركة

إجهاض قوة البحرية الإسلامية النامية. يقول أرشيبالد. د. لويس بعد أن تحدث عن غزو الأسطول الإسلامي لقرصص: «ويظهر أن الغارات التي انتهت باحتلال الجزيرة أثارت حماسة الدولة البيزنطية نحو البحر، ودفعها للقيام بعمليات بحرية جديدة، وكان هذه العمليات قد توقفت منذ فشلها في معركة الإسكندرية عام 645 م - 25 هـ.

أعد قنسطانز الثاني خليفة هرقل أسطولاً كبيراً تراوح عدده من 800 سفينة شراعية، والتقى هذا الأسطول في السنة ذاتها بأسطول صغير مشترك بين العرب والمصريين مكون من 200 سفينة أقلت من شواطئ سورية قرب موضع يقال له فونيكس Phoenicis بأسيا الصغرى، وتعرف هذه الواقعة بواقعة ذات الصواري».

يقول إرنست وتريفور ديوي: «لقد بدأ العرب بشدة في تحدي سيادة بيزنطة البحرية، وهزموا أساطيل الإمبراطور قنسطانز الثاني واستولوا على بعض الجزر شرقي البحر الأبيض المتوسط». وفي موضع آخر يقول: «وفي البحر استولى المسلمون على رودس 654 م، وهزموا أسطولاً بيزنطياً يقوده قنسطانز بنفسه في معركة بحرية عظيمة خارج ساحل ليكيا (655 م)».

يقول الدكتور عبد المنعم ماجد: «ويظهر أن النشاط المتزايد من قبل العرب أخاف بيزنطة بحيث إن الإمبراطور قنسطانز الثاني (642-

نتائج «ذات الصواري»

بعده، وكان حدثاً صغير السن، ما جعل الظروف مواتية لقيام حملة بحرية وبرية إسلامية تستهدف العاصمة روما.

رابعا انكب المسلمون على دراسة علوم البحر وصناعة السفن وكيفية تسليحها وأسلوب القتال عليها وعلوم الفلك المتصلة بتسييرها في البحار ومعرفه موافقها على المصورات البحرية المختلفة، فعرقوا الإسطراب والبوصلة الفلكية وطوروا إلى المدى الذي استفاد منه بعد ذلك البحارة الغربيون أمثال: كريستوف كولومبوس، وأميريكو فاسوتشي في اكتشافاتهم.

كما لا بد من الإشارة إلى أن نجاح المسلمين في هذه المعركة يعود إلى قائدتهم عبد الله بن سعد بن أبي السرح وما اتصف به من رباطة جاش ومقدرة فائقة في إدارة الحروب.

أولا كانت ذات الصواري أول معركة حاسمة في البحر خاضها المسلمون، أظهر فيها الأسطول الفتى الصبر والإيمان، كما عمد المسلمون فيها إلى استخدام خطاطيف طويلة يجرون فيها صواري سفن الأعداء وأشرعتها، الأمر الذي انتهى بكارثة على الروم.

ثانياً كانت ذات الصواري حدثاً فاصلاً في سياسة الروم إزاء المسلمين، فادركوا فشل خططهم في استرداد هيبتهم أو استرجاع مصر أو الشام، وأصبح البحر المتوسط بحراً إسلامياً صافياً بعد أن كان بحيرة رومية، واستطاع المسلمون فتح قبرص وكريت وكورسيكا وسردينيا وصقلية وجزر البليار، ووصلوا إلى جنوة ومرسيليا.

ثالثاً قتل قسطنطين فتولى ابنه الرابع من

